بخلاء الجاحظ - دراسة نقدية

الأستاذ الدكتور

ستار جبار رزيج

جامعة المثنى - كلية التربية للعلوم الإنسانية

Albwdy268@gmail.com

Bakhla Al-Jahiz , A critical study

Prof. Dr Star Jabbar Rezeej

University of Muthanna , Faculty of Education for Human Sciencs

الملخّص :

تناولنا في دراستنا هذه كتاب (البخلاء) للجاحظ الذي يُعد من كتبه الرائعة ، إن لم يكن أروعها، فقد تميز بمعالجة موضوعية ،دقيقة وجمع فيه أخبارا كثيرة تتعلق ببخلاء عصره ، وتناول فيه المتكلمين والمعتزلة ، وتميز بجماله اللفظي واستقامة المعنى ، وفي خصب الخيال وصَوَّر مجتمعه تصويرا دقيقا لا يقاس إليه تصوير يدانيه ، صور حياة البصرة وبغداد في عهده .

ويظن الباحث إن كتاب البخلاء من الكتب التي ألفها في سنوات عمره الأخيرة التي أصيب فيها بالفالج ، فهو من الكتب التي ألفت في مرضه مع كتاب (الحيوان)الذي كان آخر ما كتبه ، وما يدل على ذلك ماورد في الكتاب نفسه في قصته مع (محفوظ النقاش) بقوله : قال يا أبا عثمان ، إنه لبأ وغلظة ، أوهو الليل وركوده ، ثم ليلة مطر ورطوبة ، وأنت رجل قد طعنت في السن ولم تزل تشكو من الفالج طرفا .٠

الكلمات المفتاحية : البخلاء - الجاحظ – النقد - المتكلمين – المعتزلة - التصوير - المجتمع .

Abstract:

In this study, we have dealt with the book Al-Bukhla, which is one of the most wonderful books, if not the most remarkable. It was characterized by an objective and accurate treatment. It included many stories related to the scruples of his time, the speakers and the isolationist. A precise depiction of his portraits, pictures of the life of Basra and Baghdad in his reign.

The researcher thinks that the Book of Bakhla from the books he wrote in the last years of his life in which he was wounded, is one of the books that was written in his illness with the book (animal), which was the last of what he wrote, and what is evidenced in the same book in his story with He said: O Abu Othman, he said to him, and he said to him, O night and hibernation, and then the night of rain and moisture, and you are a man who has stabbed at age and still complaining about the fugitive party.

key words : Al-Bukhla , al-Jahiz , criticism , speakers , Mu'tazil , photography , society ..

المقدمة

يقوم هذا البحث الموسوم ب(بخلاء الجاحظ دراسة نقدية) على دراسة كتاب البخلاء للأديب العربي الجاحظ ، الذي عاش في القرن الثالث الهجري في عدة جوانب ، وهي اجتماعية وسيكلوجية وفنية ، لما تميز به هذا الأديب من ثقافة عامة وواسعة تجلت في معظم تراثه الذي تركه سواء أ كان أديبا أم فكريا أم غيرهما .

حاول الباحث أن يبرز الجوانب الإجتماعية والسيكلوجية والفنية من كتاب البخلاء بالنصوص الواردة فيه وعلاقتها بتصوير المجتمع واقعيا ، فضلا عن الإشارة الى التصورات التي رسمها الجاحظ في شخصيات عصره مقارنة بغيره من الأدباء ، أما المنهج المتبع فلم يكن منهجا واحدا بعينه وإنما عدة مناهج أو منهج متكامل من عدة مناهج – كما يعبر سيد قطب –

وأخيرا يمثل هذا البحث محاولة فنية جديدة ، وفق معيارية النقد الحديثة التى تنظر الى العمل الفني برؤى حداثوية ، بعيدا عن المناهج الكلاسيكية القديمة .

المبحث الأول

الجوانب الاجتماعية في كتاب البخلاء

القارئ لكتاب البخلاء بلا شك سوف يرى كيف صور الجاحظ الحياة الاجتماعية في عصره كتابة، وإن كانت الأخيرة لا تغني عن الرؤية للنادرة كيف حصلت أول مرة ؛لأن الكتاب مهما بلغ من القدرة على التصوير والتخيل ، إلا أنه في بعض الأحداث العملية والسلوكية لا يمكن نقلها نقلا حيا إلا أن تمثل تمثيلا إذ يقول :((وهذا وشبهه إنما يطيب جدا إذا رأيت الحكاية بعينك ؛لأن الكاتب لا يصور لك كل شيء ولا يأتي لك على كنهه وعلى حدوده وحقائقه))[1].

ومن أجل ذلك ترك الإعراب في بعض المواضع إذ يقول ((إن وجدتم في هذا الكتاب لحنا ،أو كلاما غير معرب ، ولفظا معدولا عن جهته ،فاعلموا أنا

إنما تركنا ذلك ؛ لأن الإعراب يبغض هذا الباب ،ويخرجه من حده .إلا أن أحكي كلاما من كلام متعاقلي البخلاء ،واشحاء العلماء كسهل بن هارون واشباهه))٠[٢]

فقد مال الجاحظ الى تصوير الواقع الاجتماعي تصويرا واقعيا بعيدا عن المبالغة والغلو ، حتى أنه كان يعد للنادرة قبل روايتها وموافقته الاسماء المذكورة للحدث إذا كانت النادرة اجتماعية ؛لأن للنادرة ظرفها وبيئتها والشخصية التي ترويها أو تروي عنها ،لذا كان اسلوبه في هذا الكتاب يميل الى الحقيقة بشكل كبير ، حتى أنه استعمل عددا من الكلمات الحديثة العهد بأصولها الأجنبية ،وإن الجاحظ ينتقي من بين رصيده اللغوي الوافر الألفاظ الدالة بالخصوص على ما يريد أن يعبر عنه وأنه يبتعد ما أمكن عن الألفاظ

العامة التي تضم في حقولها الدلالية بالإضافة الى المعنى المقصود معنى أو معاني لا يقصد إليها المتكلم[٣]

إذًا هذه الوسائل استعملها الجاحظ لتصوير الجوانب الاجتماعية في عصره من ((ملابس ،وأواني ،ومسارج ، وأطعمة ،وسائر الآلات ...الخ التي يستعملها في عصره ،فمثلا عن (السراج) يراه الباحث في ثلاث قصص من قصص الخرسانيين ، تتعلق بالسراج بقوله: ((وقال خاقان بن صبيح : دخلت على رجل من أهل خراسان ليلا ،وإذا هو قد أتانا لمسرجة فيها فتيلة في غاية الدقة ،وإذا هو قد ألقى في دهن المسرجة شيئا من ملح ،وقد علق على عمود المنارة عودا بخيط ،وقد خر فيه ،حتى صار فيه مكان للرباط فكان المصباح إذا كاد ينطفئ أشخص رأس الفتيلة بذلك قال :فقلت له : مابال العود مربوطا ؟قال : هذا عود قد تشرب الدهن فإن ضاع ولم يحفظ ،احتجنا الى واحد عطشان فإذا كان هذا دأبنا ودأبه ،ضاع من دهننا في الشهر بقدر كفاية ليلة))[٤]

ترى كيف صور لنا السراج وكيفية ملئه بالزيت واشتعاله ، مع استعماله كرمز على تصوير البخل ؛لأن الوسيلة الوحيدة للإضاءة كانت هي "السراج " .

أما الأواني مثلا "الجرة" جاء في حديث خالد بن يزيد ((فلما صار في المنزل ،نظر الى جرة خضراء معلقة قال : أي شيء في هذه الجرة ؟ قالوا ليس

اليوم فيها شيء .قال : فأي شيء فيها قبل اليوم قالوا سمن :قال :وما كان يصنع به ؟ قالوا:كنا في الشتاء نلقي له في البرمة شيئا من دقيق نعمله له ،فكان ربما برقه شيء من سمن .قال : تقولون ولاتفعلون السمن أخو العسل وهل أفسد الناس أموالهم إلا في السمن والعسل ؟ والله إني لولا أن للجرة ثمنا لما كسرتها إلا على قبر قالوا :فخرج فوق أبيه ، وما كنا نظنإن فوقه مزيدا))[٥]

فترى إنه يصور الجرة التي تمثل جانبا من الجوانب الاجتماعية السائدة في حياتهم المادية ، وإنها خضراء ،وهذا التقييد اللفظي الذي ينزع الى الحقيقة ليرسم للمجتمع صورة واقعية .

أما الأكل ومظاهره فإن الكتاب يتحدث في جله عن الآكل والمأكول والقصة غالبا ماتكون على الأكل للدلالة على صورة البخيل وكيفية تصويره ، ومن الأكل الذي ورد في البخلاء (الجيسوان والسهريز والبرني والطباهج والسكباج)جاء في البخلاء: ((وحدثني أبو المنجوف السدوسي قال :كنت مع أبي ومعنا شيخ من موالي الحي فمررنا بناطور على نهر الأبلة ،ونحن تعبون فجلسنا إليه ، فلم يلبث أن جاءنا بطبق عليه رطب سكر وجيسوان أسود ،فوضعه بين أيدينا .فأكل الشيخ الذي كان معنا .فلما رأيت أبي لايأكل لم آكل ، وبي الى ذلك حاجة ،فاقبل الناطور على أبي فقال : لم لاتأكل ؟قال :والله إني لأشتهيه ولكن لا أظن صاحب الأرض أباح لك إطعام الناس من الغريب .فلو جئتنا من السهريز والبزي لأكلنا فقال مولانا ،وهو شيخ كبير السن :ولكني أنا لم أنظر في شيء من هذا))[٦]

ومن الجوانب الاجتماعية التي جاءت في البخلاء مانقله عن معاوية وفي خلافته إنه جالس رجل ليس له مكانه – كما قال – ولكنه عنده حكمه فعندما أبصر معاوية في لقمته شعر ((فقال :خذ الشعرة من لقمتك .ولأوجه لهذا القول لا محض النصيحة والشفقة ،فقال الرجل :وإنك لتراعيني مراعاة من يبصر معها الشعرة لاجلست لك على مائدة ماحييت ،ولاحكيتها عنك مابقيت))[٧]

فإن في هذه الآداب مع الضيف عند الأكل التي لاتزال موجودة في مجتمعاتنا الى الآن قد صورها الجاحظ بدقة ،وهي مع أدق الأشياء التي تعكس ثقافة وآداب المجتمع .

ومما ساعد الجاحظ على هذا التصوير لمجتمعه بسخرية ،فضلا عن دمامة خلقته وقبح هيئته التي كان بسببها يسخر حتى من نفسه ، وطبيعته وفطرته إذ كان مطبوعا على المرح والفكاهة وروح الخفة والدعابة ،فإن مجتمعه وبيئته التي كان مختلطا فيها منذ صغره يبيع الخبز والسمك بسيحان،ويتلقى مبادئ العلوم مع الصبيان في كتاب القرية ،وهذان مجتمعان يحفلان بالفكاهية والطرائف والنوادر ،ويعتمدان على النكتة الساخرة ،والغمزة الضاحكة ، وكذلك الدولة العباسية مكتظة بشتى المتناقضات إذ جاوز المجتمع حدوده فصار وصفا للذم والهزء ،كذلك البيئة الفكرية كان لها أكبر الأثر في نمو السخرية عنده [٨] .لذا تجده قريبا من المجتمع ويعلم بخفاياه إذ معظم هذه القصص التي ساقها في البخلاء حدثت بعضها معه والأخرى مع مقربين منه ، فالمجتمع المروي (نسبة الى مرو) مثلا كان بخيلا ليس بسبب الفقر وإنما بسبب إن طبيعة المجتمع هي البخل ،فقصة الرجل من أهل (مرو) الذي كان لايزال يحج ويتجر ،وينزل على رجل من أهل العراق ،فيكرمه ويكفيه مؤنته وكان يقول للعراقي أتمنى أن أراك بمرو فلما جاء لمرو أنكر عليه معرفته فقد كان المروي يحج ويتجر ، ولكنه بخيل وأنكر معرفته لصديقه حتى قال له ،لو خرجت من جلدك لم أعرفك))[٩].

وفي المجتمع الذي صورالجاحظ الحرص على أتفه الأشياء وأرخصها جاء في البخلاء ((ولم أر مثل أبي جعفر الطرطوسي زار قوما فأكرموه وطيبوه ،وجعلوا في شاربه وسبلته غالية فحكته شفته العليا ،فأدخل إصبعه فحكها من باطن الشفة ،مخافة أن تأخذ إصبعه من الغالية شيئا ، إذا حكها من باطن الشفة ،وهذا وشبهه إنما يطيب جدا إذا رأيت الحكاية بعينك ،لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ،ولا يأتي لك على كنهه ،وعلى حدود حقائقه))[١٠] أما الدين الذي له وجود في جميع نواحي حياة البخلاء فإن البخيل نفسه أوحى بأنه خال أو يكاد من الشعور الديني .فمهما افتقر الى الماء وبعد النهر فإن البخيل وزوجته يغتسلان أولا ثم يفكران بعد ذلك في حل [١١]؛ يقول أحد المسجدين ، ((وكنت أنا والنعجة "يقصد بها زوجته" كثيرا مانغتسل بالعذب مخافة أن يعتري جلودنا منه مثل ما اعترى جوف الحمار فكان ذلك الماء العذب الصافي يذهب

باطلا ، ثم انفتح لي بابا من الاصلاح))[١٢] ، كذلك من الغريب أن لاتجد ذكرا الاخيرة على الرغم من إن الزكاة اخراج للمال ، وأن البخلاء ينتمون الى طبقة الأغنياء فترى البخيل يمنع الزكاة ويعلل ذلك بشتى التعليلات أويدفعها وتتمزق نفسه عليها كما تمزقت على طعامه ؛ السبب يرجع الى أن دفع الزكاة كغيره من ضرورات الحياة أمر طبيعي عند البخيل ولا يفكر فيه ولا تمزق نفسه عليه ،فقد بلغ الدين من التأصل في الحياة والامتزاج بها والدخول في طبيعة الأشياء بحيث خرج من القلب والعقل الى الطبيعة والعادة ،إذ الدين حاضر في كل شيء ،لكن الشعور الديني يكاد يكون مفقودا [١٣] .

ومن المظاهر الدينية التي استهوت البخيل في كتاب البخلاء شخصية (عمر بن الخطاب) ، التي جاءت في عدد ورودها في المرتبة الثانية بعد الرسول (ﷺ)،إذ كان عمر أشد الجميع تقشفا ،فكانت أقوال عمر وأفعاله أقرب الى البخيل وأسهل تأويلا من أقوال غيره من الصحابة والعلماء ،فالتقارب الشكلي بينهما هو مااشتغله بخيل الجاحظ لصالح قضيته فثقافة البخيل الدينية (وغير الدينية) خاضعة له وليس العكس[١٤].

المبحث الثاني

الجوانب السيكلوجية في كتاب البخلاء

للجاحظ جوانب سيكلوجية في أغلب كتبه الأدبية ، إذ كان خبيرا بدراسة نفسية الانسان في مجتمعه من خلال تصرفاته ، وكتاب البخلاء يحفل بهذه الجوانب السلوكية التي تكشف عن نفسية صاحبها[١٥].

ففي قصص أهل خراسان التي بدأ بها الكتاب قال : ((نبدأ بأهل خراسان لإكثار الناس في أهل خراسان ونخص بذلك أهل مرو ...قال ثمامة :لم أر الديك في بلدة قط إلا وهولاقط يأخذ الحبة بمنقاره ، ثم يلفظها قدام الدجاجة إلا ديكة مرو فإني رأيتها تسلب الدجاج مافي مناقيرها من الحب فعلمت إن بخلهم شيء في طبع البلاد ، وفي جواهر الماء .فمن ثّمة عَمَّ جميع حيواناتهم))[١٦] ،فعلم النفس يقر بتأثر الانسان ببيئته ، وهذا ما يلحظ في القصة إذ إن طبع البلاد أثر في نفسية البخيل والمبالغة الى الحيوانات ، ولكن الجاحظ يرفض

المبالغة في الصفة في كتابه البخلاء، إذ يقول بعد نقله نادرة عن بخيل ورث مالا وعقارا عن والده المتوفى ،ومما وجد في جره معلقة بنخلة فيها أثر حك الخبز لمسح المتوفى بها ، فقال الوريث البخيل: ((ماهذه الحفرة ؟قالوا:كان لايقطع الجبن ، وإنما كان يمسح على ظهره فيحفر كما ترى قال فبهذا أهلكني ،وبهذا أقعدني هذا المقعد ، ولو علمت ذلك ،...ولا يعجبني هذا الحرف الأخير؛لأن الافراط لاغاية له))[١٧]

فهذا القول الأخير(الحرف الأخير)لاغاية له عند الجاحظ ((وإنما كان الناس وما يجوز فيهم مثله أوحجة أو طريقة ، فأما مثل هذا الحرف فليس مما تذكره وأما سائر حديث الرجل، فإنه من هذه البابة))[١٨]

وقد يكون الكبر في السن هو الذي يؤدي الى البخل ، وكثيرا ماورد في كتاب البخلاء عن البخيل كلمة "شيخ" ،ومن هؤلاء البخلاء " معاذة العنبرية" عندما أهدى إليها ابن عم لها أضحية ((فرأيتها كما يقول كئيبة حزينة ،مفكرة مطرقة فقلت لها :مالك يامعاذة ؟ قالت : أنا امرأة أرملة ،وليس لي قيم ولاعهد لي بتدبير لحم الأضاحي))[١٩]

ففي القصة أن معاذة وحيدة ،ولكنها كانت شديدة البخل إذ كانت لا تفرط في شيء من الأضحية حتى الدم المسفوح ،وقد صورها الجاحظ بأسلوبه غاية التصوير.

وفي قصة محمد بن أبي المؤمل يحاوره الجاحظ فقال ((ولو إن رجلا جلس على بيدر تمر فائق ،وعلى كدس كمثرى منعوت ،وعلى مائة قنو موز موصوف ،لم يكن أكله ،إذا أتى بذلك في طبق نظيف ،مع خادم نظيف عليه منديل نظيف))[٢٠] ، ففي هذا القول تحديد دقيق للنفسية الانسانية أن الشيء إذا كثر فقد القيمة عندها وإن قل صار عديم القيمة .

وكذلك الصراع النفسي الذي يصفه الكندي بدقة في دعوته لعياله الى مجاهدة النفس فيقول :((اصبروا عن الرطب عند ابتداء أوائله وعن باكورات الفاكهة فإن للنفس عند كل طارق نزوه، وعند كل هاجم بدوة،وللقادم حلاوة وفرصة، وللجديد بشاشة وعزة فإنك متى رددتها ارتدت ومتى ردعتها

ارتدعت والنفس عزوف ونفور ،وما حملتها احتملت وإن اهملتها فسدت ، فإن لم تكف جميع دعاويها وتحسم جميع خواطرها في أول ردة صارت أقل عددا وأضعف قوة ...))[٢١]

فالبخيل يعيش صراعا نفسيا يدور بين عاطفة البخل التي تدعو الى الامساك ، وحركة شهوته التي تميل الى التمتع .فالأولى تحذر من الانفاق والثانية تتطلب الانفاق ،والصراع بين البخل والشهوة صراع يعيه البخيل ويخافه مما جعله يخاف الشهوة ويحمل عليها ، وكأن هذا الصراع صراع بين الشهوة والدين أو بين العاطفة والعقل .وقد كانت الغلبة في أكثر الأحيان لعاطفة البخل الا أن الشهوة تبقى حاضرة .وأن كانت وراء القضبان ،فتبرز كلما وجدت الى ذلك سبيلا ، وهي على كل حال قوية بدليل إن البخيل دعا الى مجاهدتهاوإنه يشعر بكونها تهديدا له ولماله [٢٢] .

فكل ماورد من قصص وإن كانت عن أصدقائه – أي الجاحظ – جاءت على الحقيقة الواقعية باسلوبه البليغ ، حتى إن الجاحظ نفسه أشار الى ذلك بقوله ((ولاتقولوا الآن :قد والله أساء أبو عثمان الى صديقه ،بل ماتناوله بالسوء ، حتى بدأ بنفسه ، ومن كانت هذه صفته ،وهذا مذهبه ،فغير مأمون على جليسه .وأي الرجال المهذب ؟ هذا والله الشيوع والتبوع والنداء وقلة الوفاء .أعلموا إني لم التمس بهذه الأحاديث عنه الاموافقته وطلب رضاه ومحبته))[٢٣].

وأحيانا يضطر البخيل الى أن يخفي ما بداخله من البخل بسلوكه ،قال الجاحظ ((وصديق كنا قد ابتلينا بمؤاكلته وقد كان ظن أنا قد عرفناه بالبخل على الطعام وهجس ذلك في نفسه ، وتوهم أنا قد تذاكرنا أمره .فكان يتزيد في تكثير الطعام ،وفي إظهار الحرص على أن يؤكل .حتى قال :من رفع يده قبل القوم غرمناه دينارا فترى بعضه إن غرمناه دينارا وظاهر لائمته محمل في رضا قلبه ،وما يرجو من نفع ذلك له))[٢٤].

ونرجع الى الكندي في قصته مع المؤجر التي كانت قصة طويله مليئة بالحجج والبراهين ،فقد كان الكندي يؤجر الدور فلاحظ يوما إن احدى

العائلات التي تؤجر دارا له قد زادت شخصين ، وكان أحد أقرباء العائلة وابنه قد جاءا لزيارتها .فكتب الكندي الى رب العائلة يستفسر عن مدة مقام هذين الرجلين .فرد عليه الرجل بأنها لن تزيد على الشهر .فكتب اليه الكندي بأن الدار منذ ذلك اليوم أصبحت عليه بأربعين درهما بدل ثلاثين فاستغرب الرجل الأمر ، وكتب اليه يستفسره ويقول له :((ومايضرك من مقامهما وثقل مؤنتهما على دونك فاكتب اليَّ بعذرك لأعرفه))[٢٥] ، فرد الكندي على هذه الجملة الوجيزة برسالة طويلة استغرقت عدة صفحات من الكتاب ، يعدد فيها مضار زيادة عدد السكان على الدار يستشف من كلامه تصويرا للناحية النفسية لدى البخيل ، وهي شعوره الدائم بأن المصاعب والكوارث تتهدده، فقد يكون الكندي في الحقيقة يعيش فعلا الاحتمالات والكوابيس التي سردها علينا ، فلا تقطر قطرة من جره راشحة إلا تأكد بأنها ستهد البناء ، ولاتوقد نار للطبيخ إلا آمن بأنها ستتحول الى حريق يلتهم الأموال والأبدان، فالبخيل يعيش دائما في خوف وحذر شديدين على ماله ، وتتمثل له جميع الاحتمالات السوداء فيرى كل الآفات قريبة وشيكة الانقضاض على ماله[٢٦].

المبحث الثالث

الجوانب الفنية في كتاب البخلاء

الاسلوب:

كتاب البخلاء من ناحية الاسلوب ، كانت لغته واضحة سهلة ، ولكنها تحتاج الى تمرس لفهم دلالاتها ،وقد تكونت قصص البخلاء من وصايا من البخلاء ،وقصص قصيرة عن حياتهم اليومية ، أي (الاحتجاجات) و(القصص) وتوجد عدة قصص في الفصل الواحد منفصلة يربط الجاحظ بينها بحرف عطف الذي يمثل بداية قصة جديدة كقوله مثلا :((فنهض القوم بأجمعهم الى جنازتها ،وصلوا عليها .ثم انكفؤاالى زوجها ،فعزوه على مصيبته وشاركوه في حزنه ، ثم اندفع شيخ منهم فقال :ياقوم))[٢٧] فمن قوله : ((ثم

اندفع)) قد بدأ بقصة جديدة لا ربط لها بالقصة السابقة ،وأحيانا يبدأ القصة بقوله :((حدثنا)) .

أما على صعيد التراكيب والجمل ، فإنَّ البناء كان أكثر أحكاما وانسجاما ولم يلحظ في هذه الناحية من الاضطراب إلا بعض الغموض الذي يدل عليه الضمير في بعض السياقات [٢٨] ، كقوله مثلا: ((كان ذراع بن الذراع مع خالد بن صفوان فوضعوا بين يديه دجاجة وبين يديه شيء من زيتون فجعل يلحظ الدجاجة فقال كأنك تهم بها ؟ قال ومن يمنعني ؟ قال اذن أصير أنا وأنت في مالي سواء))[٢٩]

ففي عود الضمير غموض فمن الذي جعل يلحظ الدجاجة ، وكيف نهتدي في مثل هذا السياق [٣٠]

الاحتجاجات

حفل كتاب البخلاء بكثرة الحجج والبراهين من قبل البخيل ، والملاحظ سبب شيوع الاحتجاج في عصر الجاحظ إن عصره كثر فيه المتكلمون من شتى المذاهب ، وكثر الجدل والمحاورات لإثبات مذهب كلامي على آخر لذا اصطبغت بصبغة الكلام ، فما جاء في البخلاء مثلا: ((وقال أبو نؤاس كان معنا في السفينة ، ونحن نريد بغداد رجل من أهل خراسان ، وكان من عقلائهم وفهمائهم وكان يأكل وحده ،فقلت له لم تأكل وحدك ؟ قال ليس علي في هذا الموضع مسألة ، إنما المسألة على من أكل مع الجماعة ؛ لأن ذلك هو التكلف وأكلي وحدي هو الأصل وأكلي مع غيري زيادة في الأصل))[٣١]

ففي قوله :(الأصل وزيادة في الأصل من مصطلحات الفقهاء والمتكلمين).

فترى الجدل على البخل نفسه وبيان فوائده ومثال على ذلك ماجاء في البخلاء :((وقلت له مرة قد رضيت بأن يقالعبد الله بخيل ؟ قال لا أعدمني الله هذا الاسم قلت وكيف ؟ قال لا يقال فلان بخيل الا وهو ذو مال فسلم الي المال ،وادعني بأي اسم شئت قلت ولا يقال أيضا فلان سخي الا وهو ذو مال ، فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال ،واسم البخل يجمع المال والذم فقد اخذت

احسنهما واوضعهما قال : وبينما فرق قلت : فهاته قال : في قولهم بخيل تشبث لإقامة المال في ملكه ، وفي قولهم سخي اخبار عن خروج المال من ملكه واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم ، واسم السخي اسم فيه تضيع وحمد والمال زاهر نافع مكرم لأهله، معز والحمد ريح وسخرية واستماع له ضعف ومسولة، وما أقل غناء الحمد والله عنه إذا جاع بطنه وعري جلده وضاع عياله وشمت به من كان يحسده))[٣٢]

فهذا مثال من كثير مما ورد في كتاب البخلاء من الاحتجاجات التي تطول أحيانا الى عدة صفحات ، كما في قصة الكندي التي ساق فيها الأدلة لتبرير بخله.

القصص:

أما الاسلوب الآخر الذي استعمله الجاحظ في كتاب البخلاء هو اسلوب القصص -كما يسميه الجاحظ -، وهي تشغل جانبا كبيرا من الكتاب ، فهي قد تتداخل مع الاحتجاجات ، وقد تكون منفردة ، وقصيرة أحيانا وطويلة في بعض الأحيان حسب الموقف ، وأحيانا تأتي مستقلة ، وفي هذه الحالة ينسبها في العنوان الى أصحابها كقصة ليلى الناعطية ،وقصة الاصمعي ،واحيانا بدون عنوان ،وتمتاز هذه الفصيلة من النصوص ببساطة الجمل في مجموعها ووفرة الأساليب الخبرية ، ومحاولة نقل المشاهد والأحاسيس الى المستقبل دون أن نلمح لدى الباث رغبة واضحة في التأثير عكسا لما عليه الحال بالنسبة للاحتجاجات[٣٣].

ومثال على ذلك قوله : ((ولم أر مثل أبي جعفر الطرطوسي زار قوما فأكرموه وطيبوه وجعلوا في شاربه وسلبته غاية ، فحكته شفته العليا ،فأدخل اصبعه فحكها من باطن الشفة ؛ مخافة أن تأخذ إصبعه من الغالية شيئا ،إذا حكها من فوق ، وهذا وشبهه إنما يطيب جدا إذا رأيت الحكاية بعينك))[٣٤] ، فهي لقطة سريعة حكاها الجاحظ بأسلوب خبري واضح .

الاستطراد:

أما الاستطراد الذي تميز به الجاحظ في جميع كتبه ، عدا كتاب البخلاء فأنه أقل كتبه استطرادا ((ولوكان في كتب الجاحظ كتابا يمكن أن يخلو من الاستطراد لكان كتاب البخلاء))[٣٥]

اما الاستطراد فقد جاء للترويح عن القارئ وامتاعه وكتاب البخلاء كله ضحك ومرح ؛ مما جعل البعض يعده كتابا في هذا الموضوع[٣٦]، ولكن استطراداته كانت ترتبط بالبخل موضوع الكتاب .

وقد تعددت الاعلام في البخلاء، ولم يجعله بخيلا واحدا ونسج عليه قصصه ،فهو عدد البخلاء ليضفي على بطله ميزة وهي انتماؤه الى مجتمع بخيل ، وهو مما جعل نموذج الجاحظ نموذج عميق

وقد تردد في كتاب البخلاء استشهاده بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية وأقوال الحكماء خصوصا في الاستشهادات في المحاججات التي يسوقها البخيل ،ومن أقوال الرسول (ﷺ)، التي وردت مثلا ما ورد في قصة الكندي (الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق)[٣٧].

أما الشعر فإنه قليل الاستشهاد به ؛لإن البخيل يرى الشعراء من زمرة "المفسدين " ؛لأن الشاعر في الغالب يتكسب بالشعر فيمدح الجواد ويهجو البخيل .فمن الطبيعي إذن أن يعرض عنه البخيل وأن لا يجد فيه وفي شعره ماوجدهفي زهد عمر بن الخطاب ، وفي تحذير القرآن الكريم والحديث الشريف من التبذير ، وفي أقوال العلماء العامة وعبارات الخطباء المطلقة [٣٨]

واستشهد كثيرا بالأطعمة فكأن الاخيرة في هذا الاستشهاد مجتمع نابض بالحياة يرتبط أفراده بعلاقات عاطفية ،كما يوجد في المجتمع البشري لذا غالبا مايكون البخيل أكولا ، فمثلا في قصة "الاسواري " جاء ((فإن كان لابد من المشاركة ، فمع من لايستأثر علي بالمخ ، ولا ينتهز بيضة البقيلة ؛ولا يلتهم كبر الدجاجة ،ولا يبادر الى دماغ رأس السلاءة ؛ ولا يختطف كلية الجدي ،ولا يزدرد قانصة الكركي ولا ينتزع شاكلة الحمل))[٣٩]

وتعود ظاهرة الاستشهاد بالأطعمة والأكل الى عاملين :الأول إن كرم العرب – وكثيرا ما افتخر بهم أحفادهم في عصر الجاحظ ،وكثيرا ماطعن فيه الشعوبيون– يتجسد أساسا في كرم الضيافة ، تشهد بذلك مدائحهم وتلهج به ألسنتهم كما تشهد به نوادر حاتم الطائي نموذج الكرم العربي ، ولم يكثر الكلام عن الكنوز في كتاب البخلاء كما كثر عنها في مسرحية موليس وغير ها من المؤلفات التي تناولت موضوع البخل ،،وإنما كان الحديث جل الحديث عن الطعام والأكل والموائد ، فيكون هذا الطابع في كتاب البخلاء طابعا حضاريا يدل على انتماء الأثر الأدبي الى الثقافة العربية .والعامل الثاني الذي يفسر هذه الظاهرة في إن الجاحظ لم يرسم صورة بخيل فنية فقط ، وإنما رسم كذلك صورة أكول فنية تلاحظ هذه الصورة في جانب كبير من الكتاب [٤٠] مثلا: ((ولم يفاجئني قط وانا آكل تمرا إلا اسفته سفا وحساه حسورا ،وذرا به ذروا ولاوجده كثيرا الاتناول القصعة كجمجمة الثور ،ثم يأخذ بحصينها ويقلها من الأرض ثم لايزال ينهشها طولا وعرضا ورفعا وخفضا حتى يأتي عليها جميعا ثم لايقع غضبه إلا على الانصاف والاتلاف))[٤١]

أما السخرية التي عرف بها الجاحظ في كتاباته فإنها في كل صفحة من صفحات كتاب البخلاء ،حتى أن الجاحظ أشار في مقدمته الى ذلك بقوله :((وأنت في ضحك منه ان شئت وفي لهو إذا حللت الجد))[٤٢]

وساق مقدمته ليبين خصال الضحك وفوائده وأن الأنبياء ضحكوا والأولياء ، ولكن بحدود ؛لذا فان في كل قصة ونادرة جاءت في البخلاء تثير الضحك حتى وإن كان بعضها جديا في الظاهر ؛ فمثلا ما جاء في قصص الخرسانيين بقوله: ((وزعم اصحابنا أن خرسانية ترافقوا في منزل ،وصبروا عن الارتفاق بالمصباح ،ما امكن الصبر ،ثم تناهدوا وتخارجوا ،وأبى واحد منهم أن يعينهم ،وأن يدخل في العزم معهم فكانوا إذا جاء المصباح شدوا عينيه بمنديل ولا يزال ولا يزالون كذلك الى أن يناموا ،ويطفئوا المصباح فاذا أطفأوا أطلقوا عينيه))[٤٣]

ومنها كذلك قصة الجاحظ مع محفوظ النقاش التي ضحك فيها كثيرا عندما استضافه في بيته قال الجاحظ في نهاية القصة ((فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به ،لأتى علي الضحك او لقضي علي ولكن ضحك من كان وحده لا يكون الا على شطر مشاركة الأصحاب))(٤٤)

وتعود هذه الظاهرة الى عاملين الأول عامل ذاتي نابع من طبيعة الجاحظ المرحة ونفسه المتهللة وتفاؤله في الحياة فالجاحظ يضحك أولا هم ،ثم يضحك الآخرين ،وقد يضحك الآخرين ليستطيع هو أن يضحك بملء فيه ،والعامل الثاني فهو عامل فني ذو وجهين وجه يتمثل في إن السخرية مادة استعملها الجاحظ ويستعملها غيره للتصوير، بل لعلها أكثر الألوان التي استعملها الجاحظ لرسم صورة البخيل الفنية ،والوجه الفني الآخر نابع من اهتمام الجاحظ بقارئه وحرصه على إقناعه وتنشيطه ، ليقبل على الرسالة كل إقبال ويسخر طاقاته الفكرية لسبر أغوارها والوقوف على أجزائها ودقائقها دون أن يتسرب الى نفسه الملل أو يصده عن متابعة القراءة الضيق فقد كان الجاحظ أكثر توفيقا في ذلك من غيره لأن سخريته دقيقة بعيدة عن التضخيم والبعد عن الواقع(٤٥).

الخاتمة :

في الختام توصل البحث الى عدة نتائج يمكن اجمالها بما يأتي:

- إن كتاب البخلاء يمثل حقبة ما قبل ثورة الفرنج وما وصل إليه المجتمع في العصرالعباسي من الانحطاط .
- صورفي الكتاب الحياة الاجتماعية في ذلك العصرواظهر بشكل واضح مظاهر الأكل كوسيلة للتعبيرعن البخل وطرائفه
- ساعد الجاحظ على رسم هذه السخرية عدةعوامل في نفسيته وحياته وشكله و الدين يكاد يكون في جميع نواحي حياة البخلاء الا في نفوسهم وشعورهم.
- سخرالبخيل عدة شخصيات في تبريرالبخل منها شخصية عمربن الخطاب.

- تصويرالجاحظ السيكلوجي لنفسية شخصياته بدقة.
- سهولة اللغة ووضوحها في كتاب البخلاء.
- كتاب البخلاء من اكثركتب الجاحظ من حيث قلة الاستطراد.
- صيغة الجدل والاحتجاجات التي طغت على كثيرمن القصص.
- كثـرة الاستشـهاد بالأطعمـة ،فإنـه يصـورمجتمع ناضـب بالحيـاة والارتباطـات العاطفية.
- يعـود كثـرة الاستشـهاد بالأطعمـة لعـدة عوامـل:كرم العـرب وافتخـارهم بـه ورسم الجاحظ الى جانب صورة البخيل صورة الأكول.
- الضـحك في راي الجـاحظ يجـب ان يكـون الى جانـب الجـد وكثـرة دعـوة الجـاحظ للضـحك نابع من شخصـيته واهتمـام الجـاحظ بقارئه وحرصه على اقناعه وتنشيطه ليقبل الرسالة.

هوامش البحث

١)البخلاء/٧٥

٢)نفسه /٥٤

٣)ينظر: صورة بخيل الجاحظ الفنية / ١٧

٤)البخلاء/٣١

٥)نفسه /٦٧

٦)البخلاء/ ٢٢٢

٧)نفسه/٨٧

٨)ينظر: الجاحظ الاديب الساخر/ ٢٦-٣٥

٩)البخلاء/ ٣٦

١٠)البخلاء/١١٥

١١)ينظر: صورة بخيل الجاحظ الفنية/ ٦١

١٢)البخلاء/ ٤٢ .

١٣)ينظر: السابق /٦١-٦٢

١٤) ينظر:صورة بخيل الجاحظ الفنية/ ٥٨

١٥)ينظر: الجوانب السيكلوجية في ادب الجاحظ/ ٦

١٦)البخلاء /٣٠ .
١٧)نفسه/ ١٥٩ ، وينظر الجاحظ منهج وفكر/ ٣٤
١٨)نفسه/ ١٥٩
١٩)البخلاء/ ٤٦
٢٠)نفسه ١١٤/
٢١)نفسه/ ١١١-١١٢
٢٢)ينظر: صورة بخيل الجاحظ الفنية / ١١١-١١٢
٢٣-البخلاء:٧٥ .
٢٤)نفسه/ ٧٢
٢٥)البخلاء / ٩٨
٢٦)ينظر: صورة بخيل الجاحظ الفنية / ١٢٩
٢٧)البخلاء /٤٤
٢٨)ينظر: صورة بخيل الجاحظ الفنية /١٥٠
٢٩)البخلاء /١٧٨ .
٣٠)ينظر: السابق/ ١٥٠
٣١)البخلاء/ ٣٧
٣٢)نفسه/ ٧٩ .
٣٣)ينظر:صورة بخيل الجاحظ الفنية / ١٣٣
٣٤)البخلاء/ ٧٥
٣٥)ينظر:صورة بخيل الجاحظ الفنية / ١٥٤
٣٦)ينظر: نفسه/ ١٥٤
٣٧)ينظر: نفسه /٦٤
٣٨)ينظر:صورة بخيل الجاحظ الفنية / ٦٨
٣٩)ينظر:صورة بخيل الجاحظ الفنية/ ٤٨
٤٠)البخلاء/ ٨٤
٤١) ينظر:صورة بخيل الجاحظ الفنية/ ١٦٧-١٦٨
٤٢)البخلاء/ ٩٦
٤٣)البخلاء/ ٨١ .

٤٤) نفسه/ ٣١

٤٥)ينظر: صورة بخيل الجاحظ الفنية / ١٦١نفسه / ١٥١

قائمة المصادر والمراجع

- البخلاء ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت(٢٥٥هـ)، اشراف محمد كايد ، بيروت – لبنان ،مؤسسة التاريخ العربي ،دار إحياء التراث العربي ،طالاولى ،٢٠٠٩م
- البلاغةالشعريةفي البيان والتبيين للجاحظ ،دمحمد علي زكي صباغ ،اشراف ومراجعة د.ياسين الايوبي ،صيدا بيروت –لبنان ،المكتبة العصرية ،ط الاولى ،١٩٩٨م
- البلاغة عند الجاحظ ،د احمد مطلوب ،الجمهورية العراقية ،دار الشؤون الثقافية للنشر منشورات وزارة الثقافة والاعلام ،١٩٩٨
- الجاحظ للدكتوراحمد كمال زكي ،مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د-ط ١٩٧٧
- الجاحظ الاديب الساخر،عبد الحليم محمد حسين ،ليبيا المنشأ الشعبية للنشر والتوزيع والاعلان والمطابع ،ط ١،١٩٨١
- الجاحظ منهج وفكر ،د.داوود سلوم ،بغداد ،دار الشؤون الثقافية ،ط الاولى ١٩٨٩
- الجوانب السيكلوجية في ادبالجاحظ، د.نوري جعفر ،الجمهورية العراقية ،دار الرشيد للنشر منشورات وزارة الثقافة والاعلام ،دط ،١٩٨١
- صورة بخيل الجاحظ الفنية من خلال خصائص الاسلوب في كتابه البخلاء احمد بن محمد بن مبيريك /بغداد /العراق /دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)د.ط /١٩٦٨
- النقد الادبي اصوله ومناهجه /سيد قطب /القاهرة /مصر /دار الشروق /ط٨/٢٠٠٣